سلطة العامل العربي («القومي») أنتجت، على الدوام، التعبير القومي على الساحة الفلسطينية، وضمنها ساحة الوعي. ومع ان هذه السلطة لم تكن منسجمة الافعال والنتائج دائماً (كانت فاعلة أحيانـاً، وكـانت كابحـة أحايين أخرى)، الّا انها عكست درجة انفتاح الساحة الفلسطينية على الاختراقات الخارجية العربية الى حدّ الاستتباع.

وسلطة العـامـل الفلسطيني توزعت بين التعبير الوطني الجماهيري ذي المضمون التحرري الاستقلالي، والذي عبّر عن نفسه في سلسلة النضالات الشعبية والسياسية ضد الاحتلال والالحاق والوصـايـة ومصـادرة القـرار الوطني، وبـين التعبـير السياسي ـ الاجتماعي البرجوازي الوطني الفلسـطيني المتحكّم في المجتمع الفلسطيني: تحت الاحتلال، وفي اللجوء. وعلى تفاوت تأثير سلطة العامل الفلسطيني، فانها أفرزت موقفاً فلسطينياً شديد الحرص على الهوية الوطنية المتميزة، سواء في صورته (الموقف) الوطنية الاستقلالية المشتبكة مع الاحتلال والالحاق، أو في صورته القطرية.

أمّـا سلطة النص الثوري، أي سلطة الافكار والاطروحات التي ارتبطت بالحركة الاشتراكية والثورية العالمية، فتتمثل في طغيان مرجعية النظرية على مرجعية الواقع، التجربة الثورية (الصينية أو الفيتنامية)، على الحقائق السياسية القائمة، الحلم على الممكن؛ أي صيرورة الاطروحة الثورية (حرب الشعب مثـلاً) مصـدر ومـرجـع التفكير ومعيار الحكم على الاشياء والتعامل معها، وليس الواقع بخصـائصه (لجوء قسم من الشعب خارج ارضه، وقيام ثورته على الحدود في بلدان الطوق التي ليست، على كل حال، قواعد ارتكاز كما كانت هانوي).

ان ثنائية «قطري ـ قومي» تعكس درجة انفتاح الوضع الفلسطيني على تأثير العامل العربي، تجربة وفكراً، ودرجة المقاومة الذاتية (الوطنية) التي يولدها ذلك الانفتاح. أمّا الثنائية «استراتيجي ـ مرحلي»، والثنائية «عسكري ـ سياسي»، فتعبّران عن درجة انشداد الخطاب السياسي الفلسطيني الى سلطة النص، ودرجة المقاومة الذاتية فيه ضد هذا الانجذاب.

٤ ـ الدولة والانتفاضة؛ نحو مرجع جديد

تعكس الثنائيات السابقة، من وجهة نظر تاريخية، معيارية، أمرين على الاقل: أولهما التراجع العام الذي شهدته الحركة الوطنية الفلسطينية في مطالبها ووسائل عملها، وهو جزء من التراجع العام العـربي، ومن تراجع الحركة الثورية العالمية خلال العقدين الاخيرين؛ وثانيهما ميل هذه الحركة، الواعي (الاختيـاري والاضـطراري) نحو الخروج من مدار الايديولوجيا الى مدار السياسة، من الشعار الى البرنامج.

ورثت الانتفـاضـة هذا الحصاد الممثّل في النقطتين السابقتين. فهي، من جهة، حاصل ذلك التراجع، ورداً عليه. وهي، من جهة أخرى، صورة لذلك الانتقال الفذّ من الايديولوجيا الى السياسة، ومن الشعار الى البرنامج. وبمقدار ما ورثت ذلك، فهي أضافت اشياء جديدة الى وسائل النضال من أجل كسب معركة الدولة. غير ان أهم ما أضافته هو صيرورتها مرجع التفكير الفلسطيني في الدولة بدل النصوص المجردة، والرهان الاساس لبنائها بدل الجيوش «القومية» المعطلة.

لم تفتأ قضية الدولة تشكّل هاجساً ضاغطاً في الخطاب السياسي الفلسطيني، وهدفاً مستمراً للنضال الفلسطيني؛ لكنها المرة الاولى، ربما، التي سيكتسب التفكير فيها، والنضال من أجلها، شرعية راهنيـة، فضـلاً عن الشرعيـة المبـدئيـة التي كانت لهـا على الدوام. ففي مختلف فتـرات العمل